

وجيزة في الولاية التكوينية

الحكيم المتأله أحمد الأشتياني

إعداد وتحقيق: أحمد ماجد



رسالة

الحمجة الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وآله الطاهرين حجج الله على الخلق أجمعين واللعنة على أعدائهم إلى يوم الدين.
... وبعد فيقول العبد الفقير إلى رحمة الله الفني أحمد بن محمد حسن الأشتياني:
هذه وجيزة رسمتها في الولاية مأخوذة جملة من كلمات المنتسبين إلى العرفان^(١) ومؤلفة مما ساقوه في هذا المقام، على حسب قول بعض الأخوان، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

* الولاية لغة:

الولاية كما ذكرها أهل اللغة، إذا استعملت بكسر الواو فهي الإمارة والتولية والسلطان، وإذا استعملت بالفتح فهي المحبة^(٢).
ويقال أيضاً: إنها مأخوذة من «الولي» بمعنى القرب.

(١) العرفان من عرف أي علم؛ يقال: «عارف يعرف الأمور، ولا ينكر أحد رآه مرة... والعريف والعارف بمعنى العليم والعالم» (لسان العرب، ج ٩، ص ١٥٤) والعرفان منهج إسلامي يقسم إلى قسمين: «القسم العملي عبارة عن ذلك الجانب الذي يبني العلاقات والواجبات المفروضة على الإنسان مع نفسه ومع العالم ومع الله... مثل علم الأخلاق.. ويسمى هذا القسم بالسير والسلوك... وينبغي للسالك أن يعبر هذه المنازل والمراحل تحت إشراف ومراقبة إنسان كامل، فإذا لم تصاحبه وتلازمه عناية الإنسان الكامل... فسوف تحيط به مخاطر الضلالة. أما القسم النظري فيرتبط بتفسير الوجود أي معرفة الله والعالم والإنسان... والعرفان في هذا القسم مثل الفلسفة تريد أن تفسر الوجود» (مرتضى مطهري: العرفان، ص ١٣ - ١٥).
(٢) لم ترد في لسان العرب بهذا المعنى، ولعل العالم قد مال إلى القول: أصل هذا المصطلح مشتق من فعل وُكِّه.

رسالة

❖ وجيزة في الولاية التكوينية

الحكيم المتأله أحمد الأشتياني

إعداد وتحقيق: أحمد ماجد

❖ الشيرازي: دراسة بيبلوغرافية

أحمد ماجد

* الولاية اصطلاحاً:

بحسب الاصطلاح «الولاية» حقيقة كليّة وصفة إلهية، وشأن من الشؤون الذاتية، التي تقتضي الظهور (والله الولي الحميد)^(١) ويظهر حكمها من جميع الأشياء من الواجب^(٢) والممكن^(٣). فهي رفيق الوجود^(٤)، يدور معه حيثما دار.

* الوجود والولاية:

كما أن الوجود بحسب الظهور له درجات تتشعب ومراتب متفاوتة بالكمال والنقص والشدة والضعف، ويحمل عليها بالتشكيك^(٥)، فكذلك الولاية فإنها بعدما كانت بمعنى القرب، فلها درجات متفاوتة ومراتب مختلفة بالكمال والنقص والشدة والضعف، ويقال عليها بالتشكيك، حتى تنتهي إلى قربه تعالى بالأشياء، ولا أقرب منه بها: «مع كل شيء - أي بالمعية القيومية - لا بمقارنة»^(٦).

* معنى القرب:

لما كان القرب أمراً إضافياً معنوياً، والنسبة دائماً بين شيئين، فالحق المتعال جل شأنه

(١) سورة الشورى، ٢٨.

(٢) الواجب: «ما تقتضي ذاته وجوده اقتضاءً تاماً، أو ما يستغني في وجوده الفعلي عن غيره، وهو مرادف للضروري» (جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج٢، ص٥٤١).

(٣) الممكن: «هو الذي يتساوى في الوجود والعدم، ويقول ابن سينا: الممكن الوجود وهو الذي متى فرض غير موجود أو موجوداً، لم يعرض منه محال» (جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج٢، ص٤٢٤).

(٤) يقول الأشتياني في تفسيره لهذا المصطلح: «ما يطلق عليه لفظ الوجود، ويقال لفظه موجود على قسمين: قسم له حقيقة وذات - تسمى الماهية - غير الوجود، واسم خاص بازائها، مثاله الكلمات التي يتكلم بها الانسان، وحروفها كآلف، وباء،.... فلها حقيقة وماهية هي ماهية ألف، وباء، ولها وجود يوجد في عالم اللفظ، والكتابة، ولولاه، لما تقرر لها لفظ، أو كتابة، لأن ماهيتها ليس لها في ذاتها وجود... وقسم هو محض الوجود، ولا ماهية له غير الوجود، وذاته صرف الوجود الذي هو مبدأ لكل وجود عارض» (أحمد الأشتياني: لوازم الحقائق، ص١٠).

(٥) التشكيك: يقول العلامة مصباح يزدي: «أما المشكك يتفاوت صدقه على أفرادها، ولبعضها ميزة من جهة مصداقيتها لذلك المفهوم على البعض الآخر. كما في الخطوط فهي ليست متساوية في مصداقيتها للطول، فمصداقية الخط ذي المتر الواحد له أكثر من مصداقية الخط ذي السنتيمتر الواحد، كذا مفهوم الأسود، فهو لا يحمل على مصداقيه جميعاً بصورة متساوية، فبعضها أشد سواداً من البعض الآخر. ومفهوم الوجود من هذا القبيل» (محمد تقي المصباح: المنهج الجديد في الفلسفة، ص٣٤٨).

(٦) نهج البلاغة: الخطبة الأولى.

قريب من الأشياء، والأشياء قريبة منه تعالى، ولكن قربه تعالى من الأشياء إضافة إشراقية^(١) محصلة للمضاف إليه، نظير إشراق الشمس الموجب لوجود النور في مقابلها، لا إضافية مقولية متوقفة على وجود الطرفين.

ثم انه ليس مجرد هذا القرب مناط صحة إطلاق الولاية، فإنها قرب الخلاقية له تعالى والمخلوقية للأشياء، وليس بين الخالق والمخلوق شيء، ولو ذهبت في هذا بحسب فكر المخلوق لبلغ غاياته ما دلتك الدلالة على: «أن خالق النملة هو فاطر النخلة»^(٢): «استوى مع كل شيء»^(٣):

تو توهم كرده أي از قرب حق	كه طبقكر دور نبود از طبق
این ندانستی كه قرب اولیاء	صد كرامت دارد وكار وكیا
آهن از داود مومی شود	موم در دست جو آهن می بود
شاخ خشك وتر قریب آفتاب	آفتاب از هر دوکی دارد حجاب
لیك كو آن قربت شاخ طری	كه ثمار یخته از وی می بری
قرب برانواع باشد ای یسر	می زند حورشید بر كهسارو زر
لیك قریبی هست بازر شیدرا	كه از آن آكه نباشد بییدرا ^(٤)

* التنزل والولاية:

كما أن الوجود إذا تنزل يبلغ في النزول إلى مرتبة تنتفي أوصافه وتختفي آثاره

(١) الإضافة الاشراقية: مصطلح فلسفي، ظهر مع السهروردي الذي عرفه: «كون الشيء نوراً لنفسه ونوراً لغيره» (السهروردي: حكمة الاشراف، ص٢١٢).

(٢) ابن أبي حديد: «شرح نهج البلاغة»، ج١٣، باب ٢٢١، ص٥٥.

(٣) الصدوق: «التوحيد» م١٣، ص٣١٥.

(٤) هذه الآيات وردت في دفتر الثالث من المشوي، طبعة خاور، وحتى لا تفقد هذه الآيات قيمتها الشعرية، نورد معناها نثراً: «أيها المتفكر في سر السلوك، تفكر قليلاً في حقيقة الدرب، واعلم أن الله حق يتجلى نوره في كل الوجود، وأعرف بعقل العارف أن صانع الأطباق قريب منها، فالسر يجول في كل الحدود، انظر ملياً إلى الأولياء لتدرك أن قريهم لم يكن من هباء، فهم صلوا وصاموا وقدموا أجسادهم هبات، ونسوا الدنيا وما فيها، وارتضوا قضاء الله وقدره دون لوم. أيها المتفكر في سر الوجود، كن على يقين واعرف أن الله يعطي الفضل لمن يريد، فالحديد في يد موسى ليّن واللين في يدك أنت حديد، فالقرب ليس بمحمد يعطى، إنما فعل عطاء من رب كريم، فالشمس تشرق على الناس جميعاً، ولكن القرب يناله الأقربون، فالنور يفيض على الناس جميعاً ولكن المدركون للحقيقة عددهم يسير».

- ومنها أنه يتصور الأمر على ما هو عليه ولكنه كان مستنداً الى البرهان المفيد للقطع، وهذا أرفع وأقوى، كإيمان أصحاب الفكر وأهل النظر وكلاهما مرتبة اليقين.

- ومنها العلم الشهودي الإشراقي المطابق للواقع المعبر عنه بالكشف الصحيح، وهذا أقوى من المرتبتين السابقتين، كإيمان أهل السلو^(١) وأصحاب الكشوف، ويكون مرتبة عين اليقين، وكل هؤلاء أولياؤه تعالى، والله تعالى وليهم، وتتفاوت درجاتهم على حسب درجات إيمانهم.

والثانية: وهي الخاصة، تختص بالسالكين عند فنائهم^(٢) في الخلق، وبقائهم به علماً وشهوداً^(٣) وحالاً^(٤)، لا علماً فقط، والخاصة عبارة عن فناء العبد في الحق ذاتاً وصفة، والمعبر عنه بالمحق والطمس والمحو^(٥) إشارة إلى توحيد الذات والصفات والأفعال بل أثراً أيضاً:

من همان دم كه وضوساختم از جشمة عشق جاز تكبير زدم يكسره بر هرجه كه هست^(٦)

- (١) السالك: من سلك أي دخل في الشيء، ويقال: «سلك الخيط من الخيط أي أدخلته» (لسان العرب، ج٧، ص٣٣٧) وقد ورد هذا المصطلح في القرآن الكريم، وقال تعالى: (الذي جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) (طه:٥٣)، وعرف هذا المصطلح لدى الجرجاني على الشكل التالي: «السالك هو الذي مشى على المقامات بحاله لا بعلمه وتصوره، فكان العلم الحاصل له عيناً، يأتي من ورود الشبهة المضلة له» (الجرجاني: التعريفات، ص٢٢٠).
- (٢) الفناء من فني، ويقال: «الفناء نقبض البقاء» (ابن منظور، ج١٠، ص٣٣٩) وقال الجرجاني: «الفناء سقوط الأوصاف المذمومة، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة. والفناء فناء: أحدهما ما ذكرنا، وهو بكثرة الرياضة والثاني عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت، وهو بالاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق» (الجرجاني، ص١٧٦).
- (٣) الشهود من شهد، وهو: «من أسماء الله عز وجل: الشهيد... وقيل الشهيد الذي لا يغيب عن علمه شيء والشهيد الحاضر... وقوم شهود أي حضور» (لسان العرب، ج٧، ص٢٢٥) وقيل: «الشهود رؤية الحق بالحق» (الجرجاني: التعريفات، ص١٥١) وعبر عن هذا المصطلح أيضاً بالقول: «يعني الكاسب الذي قد يكون قد عبر الكثرات الموهومات الصورية والمعنوية، ووصل إلى مقام التوحيد العياني، فعينذاك يتأمل في صور جميع الموجودات قائمة بالحق. فتنتفي الغيرية الاثنينية من أمام بصره. فيكون الحق في كل ما يبصره، ويكون الحق في كل ما يعلمه» (التهانوي: الكشف، ج٢، ص١٠٢).
- (٤) الحال من حلل بمعنى: «النزول... وقرأ أهل مكة إذا ختموا القرآن بالتلاوة ابتدأوا وقرأوا الفاتحة وخمس آيات من أول سورة البقرة إلى قوله تعالى: (أولئك هم المفلحون) (البقرة:٥) ثم يقطعون القراءة ويسمون ذلك الحال المرتحل أي أنه ختم القرآن وابتدأ بأوله ولم يفصل بينهما زمان، وقيل أراد بالحال المرتحل الغازي الذي لا يقفل عن غزو إلا عقبه بأخر» (لسان العرب، ج٢، ص٣٠٢).
- (٥) المحق والمحو والطمس ثلاثة مصطلحات صوفية، الأول: هو «فناء العبد في ذات الحق» (السراج الطوسي: اللمع، ص٤٣١) أما المحو فهو: «ذهاب الشيء إذ لم يبق له أثر، وإذا بقي له أثر فيكون طمساً» (اللمع، ص٤٣١) في حين أن الطمس وهو ذهاب سائر الصفات البشرية في صفات أنوار الربوبية، وذهاب رسوم السيار بالكلية في صفات نور الأنوار، وذهاب صفات العبد ففي صفات الحق تعالى» (اللمع، ص٤٣٤).
- (٦) أنا عندما توضأت من يمين الغسق ناديت أربعة تكبيرات على كل شيء.

وأحكامه، حتى يسلب اسمه، ويزول عنه رسمه، بحيث يكون إطلاقه على المتصرمات^(١) كالأصوات والحركات والقوة المحضة الهيولانية بضرب من المسامحة والعناية، فكذلك الولاية إذا نزلت وانتهت في النزول، يزول حكمها ويسلب عنها اسمها، فلا يُقال للغواشق والظلمانيات كالأحجار والأمداد والفسقة والفجار أولياء الله، ذلك لانقهار نور^(٢) الوجود وأوصافه وغلبة ظلمة العدم وأحكامه.

فإذا خرج الوجود عن ذلك المسكن وتور بنور الايمان ويظهر أحكامه ويغلب أوصافه، ويصير مظهراً لصفات الجمال واللطف، ويتصف بالولاية على تفاوت الدرجات واختلاف المراتب.

* أقسام الولاية:

أ - الولاية المطلقة والمقيّدة:

تتقسم الولاية إلى المطلقة والمقيّدة، لأنها من حيث هي صفة إلهية مطلقة، ومن حيث استنادها إلى الأنبياء والأولياء مقيّدة، والمقيّدة متقومة بالمطلق، والمطلق ظاهر بالمقيد، فولاية الأنبياء والأولياء كلهم جزئيات الولاية المطلقة، كما أن نبوة الأنبياء جزئيات النبوة المطلقة.

ب - الولاية العامة والخاصة:

وتتقسم الولاية أيضاً إلى العامة والخاصة:

والأولى: هي التي تعم جميع المؤمنين بأصنافهم، وتشمل كل من آمن بالله تعالى وعمل صالحاً بمراتبهم كما قال الله تعالى: ﴿الله وليّ الذين آمنوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(١)، فإن الايمان له مراتب ودرجات:

- منها اعتقاد جازم ثابت مطابق للواقع من دون برهان كاعتقاد المقلد المصيب، فإنه ليس مستنداً مأخوذاً من البرهان، إنما استناده إلى مخبر صادق وقد حصل له القطع بصدقه.

(١) الأشياء التي تنقطع بمرور الزمان (لسان العرب، ج٧، مادة صرم).

(٢) النور والظلمة من المصطلحات الاسلامية، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم للدلالة على الإيمان والكفر، وقد ورد لفظ النور كاسم من أسماء الله تعالى (الله نور السماوات والأرض) (النور:٢٥).

(٣) سورة البقرة:٢٦٧.

ولسانها: «يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله الغني»^(١)، «إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا»^(٢).

* الولي:

الولي هو الفاني فيه تعالى الباقي به، وليس المراد بالفناء انعدام عين العبد مطلقاً، بل المراد منه فناء الجهة البشرية في الجهة الربانية، فإن العبد مبدأ لأفعاله وصفاته قبل الاتصاف بمقام الولاية من حيث البشرية، وبعد اتصافه بها هو مبدؤها من حيث الجهة الربانية، كما نقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «قلعت باب خيبر بقوة ربانية»^(٣) وورد في الحديث: «إذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع وبصره الذي يبصر»^(٤). وذلك الاتصاف لا يحصل إلا بالتوجه التام إلى حضرة الحق المطلق المتعالي سبحانه، إذ به يقوي حقيقته فتغلب الجهة خلقيته إلى أن تقهرها وتفنيها من أصلها كالمقطعة من الحديد المجاورة للنار^(٥)، فإنها بسبب المجاورة والاستعداد بقبول صفات النارية والقابلية

(١) سورة فاطر: ١٥.

(٢) سورة فاطر: ٤١.

(٣) بحار الأنوار للمجلسي، ج ٨٧، ص ٢٣، رواية ٢٥، باب ١، ويورد الحديث على الشكل التالي: «كما قال مولانا الأطهر ما قلعت باب خيبر بقوة جسمانية بل بقوة ربانية...».

(٤) الكليني: «الكافي» ج ٢، ص ٣٥٢ الحديث ٣٥٢ بإسناده عن حماد بن بشر، كما ورد في صحيح البخاري تحت رقم ٦٠٢١ وأورده أحمد في مسنده وأخرجه الغزالي في إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٢٢٧.

(٥) تبصرة للمؤلف: قولي كالمقطعة من الحديد المجاورة للنار الخ، لا يخفى على أولي الدراية والنهي، إن هذه التنظيرات التي وقعت في كلمات القوم في مثل هذا المقام، إنما هي تقريبات للمقصود إلى الأذهان، ومن باب ضيق مجال التعبير وفقد العبارة الوافية ببيان المراد وليست منطبقة على المقصود على ما ينبغي ومؤديه للمطلوب كما هو حقه، فهي مقربة من وجه مبعده من وجوه، كيف لا والحديد والنار موجودان عرضيان والطولية بينهما، إنما هي وصف الحرارة وما يتبعها من الصفات والآثار، ولكن المخلوق أيما كان إنساناً أو ملكاً أو غيرهما فنفس ذاته من أفعاله تعالى وآثاره، وأثر الشيء ليس بشيء في قبالة، فأثر الشمس ليس شمساً وأثر النار ليس ناراً، وأثر السراج ليس سراجاً، وصوت الإنسان ليس إنساناً، فيتخيل أنه شيء ليس بشيء، كما ورد في أصول الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام في باب صححة إطلاق الشيء على الله تعالى: «وإنه شيء بحقيقة الشبئية، أي فليس غيره تعالى شيئاً موجوداً على الحقيقة» (ورد هذا الحديث في أصول الكافي، ج ١، ص ٨٣ عن علي بن ابراهيم عن أبيه عن العباس بن عمر الفقمي عن هشام بن الحكم عن أبي عبد الله، أنه قال للزنديق حين سأله ما هو: قال هو شيء بخلاف الأشياء).

سايه راتو شخص بندارى ز جهل
جشم هدهد ديد وجانم عنقاش ديد
زين سبب شخص آمده نزد توسهل
حس جو كنى ديد ودل درياش ديد

المختفية فيها، تتسخن قليلاً قليلاً إلى أن يحصل منها ما يحصل من النار من الإحراق والاضاءة وغيرها، وقبل ذلك كانت مظلمة كدرة باردة، فما ظنك بالروح الانسانية والنفس الناطقة القدسية القابلة للخلافة الإلهية والوجود الحقاني بالتصفية والتسوية «فإذا سويته ونضخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين»^(١).

وكيف لا وقد وقع في الآثار الماثورة، إن للمقربين إلى الملوك الظاهرية علامات وشواهد يعرفون بها، ويتميزون بها عن غيرهم، ولهم جلالة وسلطان عند العساكر والجنود والرعية، وكل هذا من ناحية التقرب الذي لهم إلى هؤلاء السلاطين، فكيف لا يكون للمقربين إلى الحق المتعال آثار السلطنة الحقيقية الحققة الإلهية، وقد ورد: «عبدني حتى أجعلك مثلي أقول لكل شيء كف فيكون»^(٢).

ثم ذلك التوجه لا يمكن إلا بالمحبة^(٣) الذاتية الكامنة في العبد، وظهورها لا يكون إلا بالاجتناب عما يضادها ويناقضها، وهو التقوى «إن الله يحب المتقين»^(٤)، «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»^(٥)، «قل إن كنتم تحبون الله، فاتبعوني يحبكم الله»^(٦)، فالمحبة هي المركب والزاد التقوى.

← هذه الأبيات تعني: تنامي الجهل معك حتى حسبت، الظل شخصاً دون تركيب، فلن يدخل النور قلبك حتى تهد الحجب، وتحرق الجهل وتعزز التهذيب).

ولما كان ذاته تعالى صرف الحقيقة الأصلية النورية الواحدة بالوحدة الحققة الحقيقية الاطلاقية التي لا مقابل لها أصلاً وحقيقة الحياة الأزلية الأبدية التي لا ثاني لها، ولذلك قيل: فما ثمة شريك أصلاً، بل هو لفظ ظهر تحته العدم؛ فأنكرته المعرفة بتوحيد الله الوجودي، فوجدت الممكنات بأسرها آثار النور الحقيقي وأفعاله، وذواتها صرف الفقر والربط بتمسك السماوات والأرض وقيام الكل، لا أشياء لها الربط، ما للتراب ورب الأرباب: همه هرجه هستند از آن كمتزند كه باهستيش نام هستى برند

فنعم ما قيل: آهن جه آتش جه لب ببند ريش تشبيه ومشبه را بخند
معنى هذه الأبيات على التوالي: الكل قيس من نور الوجود، ومظهر عشق من المحبوب، إذا لم تر الأشياء كلها تكون قد ضيعت طريق الوصول، أنظر الى الحديد كيف يضحك فرحاً يهزأ من المشبه والشبيه، واعلم أن الصلاة لا تأخذ اسمها إذ لم تذبح في حضرة المحبوب».

(١) سورة الحجر: ٢٩.

(٢) الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، ص ٢٨١ و ٢٨٢.

(٣) الحب: «ميل الطبع الى الشيء الملد، فان تأكد الميل وقوي يسمى عشقاً (الكوفي: الكليات، ص ٣٩٨).

(٤) سورة التوبة: ٤.

(٥) سورة الحجرات: ١٣.

(٦) سورة آل عمران: ٣١.

موانع تا نكردانتی زخود
موانع جون در اين عالم چهار است
نخستين باكي از أحداث وأنجاس
سوم باكي سراغست از غير
وجود لاتوهمة خار است وخاشك
وصال حق زخليقت جدائي است
برو تو خانه دل را فروم روب
هرآنكو كرد حاصل اين طهارات
توتا خود را لابكلى در نيازى
جو ذاتت باك كردد از همه شين
كسى كو از نوافل كشت محبوب
درون جان محمود او مكان يافت

درون خانة دل ناديت نور
طهارت كردن از وى هم چهار است
دوم از معصيت وزشرك ووسواس
كه اينجا منتهى مى كرددت سير
برون انداز از خود جملة رباك
زخود بيكانه كشتن آشنائي است
مهيا كن مقام وجاى محبوب
شود بي شك سزاوار مناجات
نمازت كى شود هرگز نمازى
نمازات كردد آن دم قررة العين
به لاي نفي كرد او حانة جاروب
زبى يسمع وبى يبصر نشان يات^(١)

* الولي والنبى:

الفناء المذكور موجب لأن يتعين العبد بتعيينات إلهية وصفات ربانية مرة أخرى، وهو البقاء بالحق، وهذا المقام أتم من دائرة النبوة، ولذلك إنختمت النبوة والولاية دائمة، وجعل الولي اسماً من أسماء الله تعالى دون النبي.

فالرسالة والنبوة التشريعتان لما كانتا من الصفات الكونية الزمانية، فتقطعان بانقطاع زمان النبوة والرسالة. والولاية صفة إلهية لا تنقطع أبداً، ولا يمكن الوصول لأحد في الأنبياء وغيرهم إلى الحضرة الإلهية إلا بالولاية التي هي باطن النبوة.

(١) وهنا معنى الأبيات السابقة: «وصال الإله ليس عسيراً، لكن عليك أن ترمي عنك درن الحياة وتعود نظيف السريرة، لذلك أدرك أن النور لن يدخل قلبك حتى تهد الحجاب، وتهذب نفسك، لذلك اعلم أن الكون أضداد متتابعة نجاسة فظهر... شرك وإيمان... وإذا أدركت أن النجاسات أربعة، فاعلم أن الخير يساويها بالعدد، الأولى: الطهارة من الأحداث والأنجاس. والثانية: خروج من المعصية والشرك والوسوسة. والثالثة: التخلص من الأخلاق الذميمة التي تجعل من الإنسان كالبيهمة. والرابعة: طهارة السر عن الغير وفيها تصبح مولوداً جديداً، وصال الإله ليس عسيراً ولكن عليك أن تصبح غريباً عن نفسك، فوجودك كله أوساخ وأدران، لذلك عليك أن تحضر منزل الروح، وتجعل منها مكاناً ومقاماً للمحبيب، فمن حصل كل الطهارات أصبحت نفسه مكاناً لائقاً للمناجاة».

نعم النبوة التعريفية، وهي الإنباء عن المعارف الإلهية، ثابتة للأولياء وباقية ببقاء الولاية، إن لم تنقطع الدنيا باقية وعند انقطاعها، ينتقل الأمر إلى الآخرة.

ولما كانت الولاية أكبر حيلة من النبوة وباطنها لها، شملت الأنبياء والأولياء، فالأنبياء أولياء فانين في الحق باقين به، منبئين عن الغيب وأسراره، لأن الولي هو الذي فني في الحق تعالى وعند هذا الفناء يطلع على الحقائق والمعارف فينبى عنها. وهذا المقام كمقام النبوة اختصاص إلهي غير كسبي^(١).

فأول الولاية انتهاء السفر الأول^(٢) الذي هو السفر من الخلق إلى الحق بإزالة التعشق عن المظاهر والأغيار والخلوص من القيود والأستار^(٣)، والعبور من المنازل والمقامات^(٤) والحصول على المراتب والدرجات.

وبمجرد حصول اليقين^(٥) للشخص لا يلحق بأهل هذا المقام ولا بحصول

(١) الكسب من كسب: «هو طلب الرزق وأصله الجمع» (لسان العرب، ج١٢، ص٨٧) واصطلاحاً هو: «الفعل المفضي إلى اجتلاب نفع أو دفع ضرر، ولا يوصف فعل الله بأنه كسب لكونه منزهاً عن جلب نفع أو دفع ضرر» (الجرجاني: التعريفات، ص١٩٤).

(٢) يقول الغزالي: «أول مسالك السفر إلى الله تعالى عز وجل معرفة قواعد الشرع، وخرق حجب الأمر والنهي، وتعلق الغرض فيها والمراد بها ومنها. فإذا خلقت نواحيها وقطعوا معارفها، أشرفوا على مفاوز أوسع وبرزت لهم مهام أطول وأعرض. من ذلك، معرفة أركان المعارف النبوية، النفس، والعدو، والدنيا، فإذا تخلصوا من أوعارها أشرفوا على غيرها منها في الانتساب وأعرض بغير حساب. من ذلك سر القدر وكيف خفي بحكم من الخلائق وقادهم في عنف، وشدة في لين، وبقوة وضعف، وباختيار في جبر، إلى ما هو في مجاريه لا يخرج المخالفون عنه طرفة عين ولا يتقدمون ولا يتأخرون عنه».

(٣) الأستار من ستر: «والستر كل ما سترك عن ما يفنيك. وقيل غطاء الكون، وقد يكون الوقوف مع العادات، وقد يكون الوقوف مع نتائج الأعمال» (الجرجاني: التعريفات، ص٢٨٤) وهو أيضاً: «الستر كل ما يحجبك عما يعينك، كغطاء الكون والوقوف مع العادات والأعمال» (أبو خزام: معجم... ص٩٧).

(٤) المقام: «ما يتحقق به العبد بمنزلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع من تصرف، ويتحقق بضرب طلب، ومقاساة تكلف. فمقام كل أحد موضع إقامته عند ذلك، وما هو مشتغل بالرياضة له، وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام، فان من لا قناعة له، لا يصح له التوكل ومن توكل له لا يصلح له التسليم... والمقام هو الإقامة... ولا يصح لأحد منزلة مقام إلا بشهود إقامة الله تعالى إياه بذلك المقام ليصح بناء أمره على قاعدة صحيحة» (الطوسي: اللمع، ص٣٢).

(٥) اليقين: «هو سكون الفهم مع ثبات البرهان» (الكندي: رسائل، ج١، ص١٧١) واليقين اختلفت الأقوال فيه: «فقيل هو تحقيق التصديق بالغيب بآلة كل ظن. وقال سهل: هو المكاشفة، وقال ذو النون: كل ما رأته العيون نسب إلى العلم، وما علمته القلوب نسب إلى اليقين، وقيل: اليقين المشاهدة. و: هو عبارة عن ظهور نور الحقيقة في الموقن حال كشف أستار البشرية بشاهد الوجد والذوق، لا بدلالة العقل» (التهانوي: الكشف، ج٢، ص١٥٤٨).

الكشف^(١) الشهودي أيضاً، إلا أن يكون موجِباً لفناء الشاهد في المشهود ومحو العابد في المعبود.

فلا يتوهم العارف غير الواصل، والمشاهد بقوة استعداده للغيوب والمتصف بالصفات الحميدة والأخلاق المرضية، غير السالك طريق الحق بالفناء عن الأفعال والصفات والذات المتحقق بقرب المقام والنوافل والفرائض، أنه ولي واصل، لأن وصوله علمي أو شهودي، وهو غير واصل في الحقيقة لكونه حجاب العلم والشهود، وقد قيل: العلم الحجاب الأكبر.

وقال صاحب كتاب الإشارات في مقامات العارفين «من أثر العرفان فقد قال بالثاني»^(٢)، إنما يتجلى الحق لمن انمحي رسمه^(٣) وزال عنه اسمه، فالأولياء هم الذين تطهروا من الصفات النفسية^(٤)، وتزهوا عن الخيالات الوهمية، وتخلصوا عن القيود الجزئية وأدوا أمانة وجودات الأفعال والصفات والذات إلى من هو مالكها بالذات، فعند فنائهم عن أنفسهم وبقائهم بالحق، يتصفون بالولاية وتحصل لهم ما هو غاية آمال العارفين:

در بيابا جون دور وديوار نيست لا جرم در وى بجز انوار نيست
خانه درويش جون باشد خراب برب بود از نور ماه وآفتاب^(٥)

وفي المجلد السابع عشر من بحار الأنوار عن أنس بن مالك قال: «قالوا: يا رسول الله من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ فقال ﷺ: الذين إذا نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، فاهتموا بآجلها حيث اهتم الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أن يتركوه، فما عرض لهم عارض إلا رفضوه ولا خادعهم من رفعتها خادع إلا وضعوه، خلقت الدنيا عندهم فما يجدونها

(١) الكشف: «رفع الشيء عن ما يواريه ويغطيه» (لسان العرب: ج١٢، ص١٠٢) واصطلاحاً: «هو الاطلاع ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً» (الجرجاني: التعريفات، ص١٩٢) وقال التهانوي: «يطلقون المكاشفة على رفع الحجاب الذي يكون بين الروح الجسماني الذي لا يمكن إدراكه إلا بالحواس الظاهرة وقد يطلق على المكاشفة» (التهانوي: كشاف، ج٢، ص١٢٥٤).

(٢) ابن سينا: «الإشارات»، ج٤، ص٩٩.

(٣) قال الكاشي: «الرسم هو الخلق وصفاته، لأن الرسوم الآثار» (أبو خزام: المعجم، ص٩٠).

(٤) الصفات النفسية: «التي توصف بها الذات لنفسها، لا لقيام معنى فيها زائد على الذات».

(٥) معنى هذه الأبيات: «كما النور يكون باهراً في الصحراء القاحلة لأنها ارتضت ارادة الله لها، هكذا يجب أن يكون منزل الدرويش خراباً، حتى تدخل إليه أشعة القمر والشمس».

وخربت بينهم فما يعمرونها، وحلت في صدورهم فما يحبونها، بل يهدمونها فيبنون بها آخرتهم، ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم، نظروا إلى أهلها صرعى قد حلت بهم المثالات فما يرون أماناً دون ما يرجون ولا خوفاً دون ما يحذرون»^(١).

این مدعیان در طلبش بی خبراند آنراکه خبر شد خبری بازنیامد^(٢)

* النبوة المطلقة والمقيدة:

قال بعض الأعلام: لكل من النبوة والولاية اعتباران، اعتبار الإطلاق واعتبار التقييد، أي العام والخاص.

أ - النبوة المطلقة:

والنبوة المطلقة هي النبوة الحقيقية الحاصلة في الأزل الباقية في الأبد، ولسانها: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»^(٣) و«حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة»^(٤)، وهي إطلاع النبي المخصوص بها على استعداد جميع الموجودات بحسب ذاتها وماهياتها: «وإعطاء كل ذي حق حقه»^(٥) الذي يطلبه لسان استعداده من حيث الإنباء

(١) المجلسي: «بحار الأنوار»، ج٧٧، ص١٨٣ رواية ١٠، باب ٧.

(٢) «كل من يسعى إلى لقاء الله دون اطلاع على مقاصد الشريعة الحقنة لن يصل إلا إلى السراب، فكلما حاولوا بلوغ هدف سقط عنهم شيئاً، وبالتالي لن يستطيعوا بلوغ الهدف من سلوكهم».

(٣) المجلسي: «بحار الأنوار»، ج١٦، ص٥٨ رواية ١٩ مع العلم أنه قد ورد تراب بدل الطين، ولا بد من أن نستحضر هنا قول السيد شبر (رحمه الله تعالى) في كتابه حق اليقين حول هذا الحديث: استفاض هذا الحديث بين العامة والخاصة، راجع ج١، ص١٨٠.

(٤) الكليني: «الكافي» م١٠٣، ج١، ص٥٨، رواية ١٩.

(٥) المجلسي: «بحار...»، ج٩، ص١٣١ رواية ٤، باب ٤.

الذاتي والتعليم الحقيقي الأزلي.

وصاحب هذا المقام هو الموسوم بالخليفة الأعظم وقطب الأقطاب^(١) والإنسان الكبير^(٢) والآدم الحقيقي^(٣) المعبر عنه بالقلم الأعلى^(٤) والعقل الأول^(٥) والروح الأعظم^(٦).

وباطن هذه النبوة الولاية المطلقة، وهي عبارة عن حصول مجموع الكمالات بحسب الباطن في الأزل وبقائها إلى الأبد، ويرجع إلى فناء العبد في الحق وبقائه به، واليه الإشارة بقوله ﷺ: «أنا وعلي من نور واحد»^(٧).

ب - النبوة المقيدة:

والنبوة المقيدة هي الإخبار عن الحقائق الإلهية، أي معرفة ذات الحق وصفاته وأحكامه، فإن ضم معه تبليغ الأحكام والتأديب بالأخلاق وتعليم الحكمة والقيام بالسياسة، فهي النبوة التشريعية، وتختص بالرسالة، وقس عليها بالولاية المقيدة.

فكل من النبوة والولاية، من حيث صفة إلهية مطلقة ومن حيث استناده إلى الأنبياء والأولياء مقيدة، والمقيد متقدم بالمطلق، والمطلق ظاهر في المقيد، فنبوذة الأنبياء كلهم جزئيات النبوة المطلقة وولاية الأولياء جزئيات الولاية المطلقة.

(١) قطب الأقطاب: هو باطن نبوة محمد ﷺ، فلا يكون إلا لورثته ﷺ بالأكمالية. فلا يكون خاتم الولاية وقطب الأقطاب إلا على باطن خاتم النبوة» (أبو خزام: مصطلحات... ص ١٤٤).

(٢) يقول الامام الباقر ﷺ: «انطوى العالم الأكبر في العالم الأصغر» وهذا ما أعاده ابن عربي حين قال: «العالم كله الانسان الكبير والانسان فيه» (ابن عربي: فصوص الحكم: ج ١، ص ٣٧).

(٣) آدم: «أبو البشر... مشتق من الأدمة ولذا منع من الصرف... سمي آدم ﷺ لأنه أخذ من أدمة الأرض ويقال هي الطبقة الرابعة» (الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ٤٣) أما آدم الحقيقي فهو الانسان الكبير.

(٤) يقول الشيرازي: «قالتى أشار إليها الرسول هي التي تقع في لوح المحو والاثبات، أما القلم الأعلى فهو ما يخط خطه في اللوح المحفوظ» (الحكمة المتعالية، ج ٧، ص ٤٧).

(٥) يقول الجيلي: «هو أول مخلوق في عالم المحدثات... هو محل لشكل العلم الالهي. لأنه القلم الأعلى ثم ينزل منه العلم الى اللوح المحفوظ، فهو اجمال اللوح واللوح تفصيله والعقل الأول وهو الامام المبين» (أبو خزام: مصطلحات، ص ١٢٧).

(٦) الروح الأعظم: هو الروح الانساني مظهر الذات الإلهية من حيث ربوبيتها، ولذلك لا يمكن أن يحوم حولها حائث، ولا يروم وصلها رائم، ولا يعلم كنهها إلا الله تعالى ولا ينال هذه البغية سواه. وهو العقل الأول، والحقيقة المحمدية، والنفس الواحدة، والحقيقة الاسمائية» (الجرجاني: التعريفات، ص ١١٨).

(٧) المجلسي: «بحار الأنوار» ج ٢، ص ١٢٤ الحديث ٢١٠.

* العلاقة بين النبوة والولاية:

قال بعض المتأخرين: إن الولاية لما كانت صفة إلهية، فهي غير منقطعة أزلاً وأبداً، ولا يمكن الوصول لأحد من الأنبياء وغيرهم إلى الحضرة الإلهية إلا بالولاية، التي هي باطن النبوة، وهذه المرتبة من حيث جامعية الاسم الأعظم^(١) للأنبياء ومن حيث ظهورها في الشهادة^(٢) لخاتم الأولياء فصاحبها واسطة بين الحق وجميع الأنبياء والأولياء، ومن أمعن النظر في جواز كون الملك واسطة بين الحق والأنبياء، لا يصعب عليه قبول كون خاتم الولاية الذي مظهره الاسم الجامع أعلى مرتبة من الملائكة واسطة بينهم وبين الحق.

ثم المراد بخاتم الأولياء ليس من لا يكون بعده ولي في الزمان، بل المراد به من يكون أعلى مراتب الولاية أقصى درجات القرب مقاماً له، بحيث لا يكون من هو أقرب منه إلى الله تعالى ولا يكون فوق مرتبته في الولاية والقرب مرتبة.

وهذه الولاية هي الولاية الخاصة التي تختص بأهل الله الفانين في ذات الله الباقيين ببقائه صاحب قرب الفرائض، وهي قد تكون حالاً.

والأولى تختص بمحمد ﷺ ومحمد نقلها إلى أوصيائه وورثته بالتابعية له، وأما الأنبياء السابقون وأوصياؤهم إن حصلت لهم، حصلت على أن يكون حالاً لهم، لا أن يكون مقاماً.

يدل على ذلك رؤية كبرائهم في الأفلاك ليلة الإسراء، كل منهم في فلك، إما بمرتبة النفسانية أو العقلانية، والنفس والعقل وعقولها القدسية، أولياؤه تعالى بالولاية العامة لا

(١) نقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه وعلى آله السلام قوله: «رأيت الخضر في المنام قبل بدر ليلة، فقلت له: علمني شيئاً أنتصر به على الأعداء، فقال: قل يا هو يا من لا هو إلا هو. فلما أصبحت قصصت على رسول الله ﷺ، فقال: يا علي علمت الاسم الأعظم. فكان على لساني يوم بدر. وقرأ ﷺ: (قل هو الله أحد) (الاخلاص: ١) فلما فرغ قال: يا هو يا من لا إله إلا هو، اغفر لي وانصرني على القوم الكافرين وكان يقول ذلك وهو يطارد، فقال له عمار بن ياسر: يا أمير المؤمنين ما هذه الكنايات؟ قال: اسم الله الأعظم وعماد التوحيد لله «لا إله إلا هو»، ثم قرأ (شهد الله أنه لا إله إلا هو) (الحشر: ٢١) وآخر الحشر (من ٢١ حتى ٢٦) ثم نزل، فصلى أربع ركعات قبل الزوال» (الطبرسي: مجمع البيان، ج ١، ص ٨٤٠).

(٢) الشهادة: «عالم المملوك» (التهانوي: الكشاف، ج ٢، ص ١٢٧) ويقول الكاشاني: «منه تنزل الشرائع والكتب على الأنبياء والرسول نجوماً» (الفيض الكاشاني: علم اليقين، ج ٢، ص ٢٤٢).

(٣) الوجود الحقاني هو وجود الواحد والحقيقي.

(٤) الوجود الفرقي، ويعبر عنه أحياناً بالوجود الامكاني: «وهو ظل لوجود الحق... ولذا قال الامام الصادق ﷺ في جواب بعض اصحابه حيث سئل: الظل شيء أم ليس بشيء. قال ﷺ: فانظر الى ظلك انه شيء وليس بشيء. هذا مراد من قال بعدمية الممكنات عكوس وظلال الوجود الحق» (فصوص الحكم، ص ٧٣).

* ولاية القائم المهدي:

أقول ومن هذا البيان يعرف مراد صاحب الفتوحات المكية محي الدين بن عربي، حيث قال في الفصل الثالث عشر من أجوبة محمد علي الترمذي: «الختم ختمان: ختم يختم به الولاية مطلقاً، وختم يختم به الله الولاية المحمدية. فأما ختم الولاية على الاطلاق فهو عيسى عليه السلام، فهو الولي بالنبوة المطلقة في زمان هذه الأمة، وقد حيل بينه وبين نبوة التشريع والرسالة فينزل في آخر الزمان وارثاً خاتماً لا ولي بعده، فكان أول هذا الأمر نبي وهو آدم وآخره عيسى، أعني نبوة الاختصاص، فيكون له حشران: حشر معنا وحشر مع الأنبياء والرسول.

وأما ختم الولاية المحمدية فهو لرجل من العرب أكرمها أصلاً وبدواً وهو في زماننا اليوم موجود وعرفت به سنة خمس وتسعين وخمسمائة، ورأيت العلامة التي قد أخفاها الحق عن عيون عباده، وكشفها لي بمدينة فاس حتى رأيت خاتم الولاية فيه وهي الولاية الخاصة لا يعلمها الكثير من الناس^(١).

ثم قال مزيداً لتوضيح المقصود، الولاية صفة إلهية وشأن من الشؤون الذاتية التي تقضي الظهور، وأشار إليه تعالى بقوله: «هو الولي الحميد»^(٢)، وهذه الصفة عامة بالقياس إلى ما سوى الله لاستواء نسبته تعالى إلى الأشياء. وعن الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «استوى على كل شيء فليس شيء أقرب إليه من شيء»^(٣). فصورته ومظهره أيضاً عامة شاملة لجميع ما سوى الله وليست صورة لجميع ما سوى الله سوى العين الثابت المحمدي عليه السلام، فصورة ذلك الاسم هي الحقيقة المحمدية عليه السلام، وقد كان صورة لاسم الله الجامع والصورة الواحدة لا تكون صورة للمتمايزين في العرض، فالاسمان في طول الترتيب، واسم الولي باطن اسم الله، لأن الولاية أخفى من الإلهية، فالولاية باطن الحقيقة المحمدية وتلك الحقيقة صورة للاسمين وظاهر لهما، فالحقيقة المحمدية عليه السلام مظهر للولاية الإلهية التي ظهرت بأوصاف كماله ونعوت جماله، وهي النبوة المطلقة الجامعة للتعريف والتشريع.

(١) هذا الكلام منقول عن تفسير فيصري رومي على فصوص الحكم، ص ١٠٥٥.

(٢) سورة الشورى: ٢٨.

(٣) ورد في الكافي: «سئل عليه السلام عن قوله عز وجل: «الرحمن على العرش استوى» طه/٥، فقال: استوى على كل شيء فليس أقرب إليه من شيء» (الكافي، ج ١، ص ١٢٧، رواية ١).

الخاصة لأن وجوداتهم، ليست وجودات حقانية فان الوجود الحقاني^(١) وجود جمعي إلهي، وهؤلاء وجوداتهم وجودات فرقية^(٢).

* الولاية المحمدية:

وكلامنا في المقام لا في الحال.

فالولاية الخاصة وهي الولاية المحمدية، قد تكون مقيّدة بإسم من الأسماء وحدّ من حدودها، وقد تكون مطلقة عن الحدود ومعرّاة عن القيود، بأن تكون جامعة لظهورات جميع الأسماء والصفات، واجدة لأنحاء تجليات الذات^(١).

فالولاية المحمدية قسمان: مطلقة وكلّية من حيث كلية روحه المسمى بالعقل الأول، ومقيّدة وجزئية من حيث روحه الجزئي المدبر لجسده، ولكل منهما درجات، للمقيّدة بالعدة، وللمطلقة بالشدة، ويمكن أن يكون عالماً من علماء أمتة خاتماً لولايته المقيّدة، ووصي من أوصيائه خاتماً لولايته المطلقة.

وقد يطلق المطلقة على الولاية العامة والولاية المقيّدة المحمدية على الولاية الخاصة. وبما ذكرنا يندفع التشوش والاضطراب في كلماتهم ولا تتناقض العبارات.

فنقول تقريراً وتقريراً لما أسلفنا أن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام خاتم الأولياء بالولاية المطلقة المحمدية بالإطلاق الأول، أي الجامعة لظهور جميع الأسماء والصفات الواجدة لأنحاء التجليات وخاتم الولاية المقيّدة المحمدية بالإطلاق الثاني، أي الولاية الخاصة.

وعيسى بن مريم عليه السلام خاتم الولاية المطلقة بالإطلاق الثاني أي العامة، والمهدي القائم المنتظر عجلّ الله تعالى فرجه الشريف خاتم الولاية المطلقة بالمعنى الأول وخاتم الولاية المقيّدة بالمعنى الثاني والفرق بينه وبين جده أمير المؤمنين لما سيأتي بيانه^(٢).

(١) يقول السيد حيدر الأملي: «إن أقطاب العالم سبعة: القطب الأول: آدم مظهر الاسم القادر، لأن القدرة بعد العلم، القطب الثاني: نوح مظهر الاسم المرید بعد القدرة، القطب الثالث: ابراهيم مظهر الاسم المتكلم، لأن الكلام بعد الإرادة، القطب الرابع: داود مظهر الاسم السميع، لأن الاستماع بعد التكلم، القطب السادس: عيسى مظهر الاسم الجواد، لأن الجود بعد الرؤية، القطب السابع: مظهر الاسم المقسط، لأن القسط بعد الجود» (تفسير البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٥١).

(٢) القمشهي: «رسالة الولاية» ص ٢ - ٣.

* الخاتمة:

هذه جملة من الكلمات التي ذكرها المسمون بأهل العرفان في هذا المجال، ولو كان لما ذكره الحكماء الإسلاميون من القول بالعقول الطولية^(٤) والأنوار القاهرة^(٥)، والعقول العرضية المتكافئة المعبر عنها بالمثل النورية، مجمل صحيح ومستند قوي، فإن الكبراء منهم كالمحقق الطوسي رحمته الله قال في متن التجريد: «أما العقل فلم يثبت دليل على امتناعه، وأدلة وجوده مدخولة»^(٦) وإلا لكان حقيقياً أن يقال: «إن النور المحمدي رحمته الله الظاهر في خاتم الأنبياء وأمير المؤمنين وسيدة نساء العالمين والأئمة المعصومين متحد بحسب الحقيقة مع تلك الأنوار القاهرة الأعلى، وما هو في سائر الأنبياء وأوصيائهم مع الأنوار العرضية والمثل النورانية بحسب مراتبهم»^(٧) وتدبر في الأحاديث المروية في المجلد الأول من كتاب أصول الكافي، منها ما ورد في باب ان الأئمة رحمته الله نور الله عز وجل: «عن أبي خالد الكابلي قال: سألت أبا جعفر عن قول الله عز وجل «فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلناه»^(٨) فقال: يا أبا خالد النور والله الأئمة من آل محمد رحمته الله إلى يوم القيامة، وهم والله نور الله الذي أنزل، وهم والله نور الله في السماوات والأرض، والله يا أبا خالد لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار، وهم والله ينورون قلوب المؤمنين، ويحجب الله تعالى نورهم عمّن يشاء، فتظلم قلوبهم، والله يا أبا خالد لا يحبنا عبد ولا يتولانا حتى يطهر الله قلبه، ولا يطهر الله قلب عبد حتى يسلم لنا، ويكون سلماً لنا؛ فإذا كان سلماً لنا سلمه الله من شديد الحساب وآمنه من فزع يوم القيامة الأكبر»^(٩).

وفي باب خلقه النبي رحمته الله والأئمة الطاهرين قبل خلق السماوات والأرض منها: عن محمد بن سنان قال: «كنت عند أبي جعفر الثاني، فأجريت اختلاف الشيعة، فقال: يا محمد ان الله تعالى لم يزل متفرداً بوحدايته، ثم خلق محمداً وعلياً وفاطمة، فمكثوا ألف عام ومن ثم خلق جميع الأشياء، فأشهدهم خلقها، وأجرى طاعتهم عليها وفوض أمرها إليهم، فهم يحلون ما يشاؤون ويحرّمون ما يشاؤون، ولن يشاؤوا إلا أن يشاء الله تبارك

(١) الطوسي، محمد: «تجريد الاعتقاد» انتشارات اشكوري، قم، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ، ص ٢٣٧.

(٢) المعطيات السابقة نفسها.

(٣) سورة التغابن: ٨.

(٤) الكليني: «الكافي»، م، س، ج، ١، ص ١٩٤، رواية ١.

(٥) م، ن، ج، ١، ص ٤٤١.

ثم ظهرت الولاية الإلهية المحمدية بنعت الولاية، فصارت وليّ الله وخليفة رسول الله، ثم ظهرت كل يوم في شأن من شؤونه، وفي كل مظهر بنعت من نعوته فصارت حجج الله وخلفاء رسول الله رحمته الله إلى أن ظهرت بجميع أوصافه، فصارت قائمهم، ومظهر أوصافهم، وكلهم نور واحد وحقيقة واحدة، واختلافهم في ظهور أوصاف حقيقتهم الأصلية وهي الولاية المطلقة الإلهية كما ورد: «أولنا محمد، وأوسطنا محمد، وآخرنا محمد، كلنا محمد»^(١٠).

فيرتفع ما يتوهم من التناقض في قولنا تارة خاتم الولاية المحمدية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رحمته الله وتارة أنه المهدي الموعود المنتظر رحمته الله لأنهما بل لأنهم رحمته الله، نور واحد بالسنخ^(١١) والاختلاف بالشؤون والظهورات على حسب اقتضاء الحكمة البالغة.

فظهر أن ما في خاتم الولاية المحمدية هي الحقيقة النورية المحمدية، التي خلعت لباس النبوة، واكتست كساء الولاية وظهرت في صورة أوصيائه المعصومين، فإن شئت قلت: أمير المؤمنين، وإن شئت قلت: بأي إمام من الأئمة المعصومين رحمته الله، إلا أن قائمهم أولى بذلك لظهور جميع الأوصاف فيه رحمته الله.

(١) عن الامام علي رحمته الله: «أنا عالم بضمائر قلوبكم والأئمة من أولادي رحمته الله يعلمون ويفعلون هذا إذا أحبوا أرادوا، لأننا كلنا واحد، أولنا محمد، وأوسطنا محمد وآخرنا محمد، وكلنا محمد» (المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٦، رواية ١، باب ١٤).

(٢) السنخية: ينطلق هذا المفهوم من وجوب المناسبة بين العلة والمعلول، بحيث يؤدي هذا الأمر الى ارتباط ذاتي بينهما، ويؤدي هذا الارتباط بين الوجود الى نوع من الوحدة بين العلة والمعلول، باعتبار علاقة خاصة في صدور هذا المعلول عن علته، وبغيره تبطل العلية» (آل ياسين: الفيلسوف الشيرازي، ص ١٠١).

(٣) الفمشهي: «رسالة الولاية» ص ٥ - ٧.

(٤) العقول الطولية: «لما كان واجب الوجود واحداً بسيطاً من جميع الجهات، امتنع أن يصدر منه الكثير سواء أكان الصادر مجرداً كالعقول العرضية أو مادياً كالأشياء المادية، لأن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد، فأول صادر منه تعالى عقل واحد، يحاكي بوجوده الواحد الظلي وجود الواجب تعالى في وحدته. ولما كان معنى أوليته هو تقدمه في الوجود على غيره من الوجودات الممكنة هو العلية، كان علة متوسطة بينه تعالى وبين سائر الصوادر منه، فهو الوسطة في صدور ما دونه ما ليس في ذلك تحديد القدرة الواجبة» (الطباطبائي: بداية الحكمة، ص ١٢٧).

(٥) الأنوار القاهرة: «نور حقيقي غير متناه الشدة النورية الحقيقية، يظهر ذاته لذاته وكذا يظهر جميع ما عدا ذاته لاشراقه عليه، فكيف يخفى عليه مما في عالم الغيب والشهادة، أم كيف يحتاج مع هذه النورية الى الصور لتظهر له ذوات الصور، وهذا قوي متين، إن أريد بالنور حقيقة الوجود الذي هو عين الأعيان، وهو الظاهر بالذات المظهر للماهيات» (الشيرازي: الحكمة المتعالية، ج ٦، ص ٢٤٩).

وطينتكم واحدة طابت وطهرت بعضها من بعض، خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعشره
محدثين حتى منّ علينا بكم»^(٣).

ولو تأملت في ما قدرناه من أول الرسالة إلى هنا، ثم تدبّرت في بقية فقرات الزيارة
الكاملة لوجدتها منطبقة على جملة ما ذكرنا «والله يهدي من يشاء إلى صراط
مستقيم»^(٤) ثم ذكر بعضهم أن المبعوث إلى الخلق لما كان تارة من غير تشريع وكتاب من
الله تعالى وتارة بتشريع وكتاب منه سبحانه وتعالى، انقسم النبي إلى المرسل وغيره،
فالمرسلون أعلى مرتبة من غيرهم لجمعهم بين المرتبتين الولاية والنبوة وإن كانت مرتبة
ولايتهم أعلى من جهة نبوتهم، ونبوتهم أعلى من رسالتهم، لأن الولاية جهة حقيقتهم
وفنائهم فيه تعالى، ونبوتهم جهة ملكيتهم، إذ بها تحصل لهم المناسبة للعالم الإنساني،
فمقام النبوة برزخ بين الولاية والرسالة يعني أنها فوق الولاية. هذا ما وفّقت لرسمه في
هذه الأوراق وفاءً بالميثاق، وأسأل الله أن يثبتني على ولاية أوليائه الطاهرين سلام الله
عليهم أجمعين، والحمد لله أولاً وأخيراً.

وتعالى. ثم قال: يا محمد هذه الديانة التي من تقدمها مرق ومن تخلف عنها محق ومن
لزمها لحق، خذها إليك يا محمد»^(٥).

ومنها ما عن المفضل: «قلت: يا أبا عبد الله، كيف كنتم حيث كنتم في الأظلة؟ فقال: يا
مفضل كنا عند ربنا ليس عنده أحد غيرنا في أظلة خضراء نسبّحه ونقدّسه ونهلّله،
ونمجّده وما من ملك مقرب ولا ذي روح غيرنا حتى بدا له في خلق الأشياء، فخلق الكان
والمكان، فخلق نور الأنوار الذي نورت منه الأنوار وهو النور الذي خلق منه محمداً وعلياً
فلم يزالا أولين إذ لا شيء كوّن قبلهما، فلم يزالا يجريان طاهرين مطهّرين في الأصلاب
الطاهرة حتى افترقا في أظهر طاهرين في عبد الله وأبي طالب»^(١).

ومنها ما عن جابر بن يزيد قال: «قال لي أبو جعفر: يا جابر إن الله أول ما خلق محمداً
وعترته الهداة المهتدين، فكانوا أشباحاً نورية بين يدي الله، قلت: وما الأشباح؟ قال: ظل
النور أبدان نورية بلا أرواح وكان مؤيداً بروح واحد، وهي روح القدس فيه كان يعبد الله
وعترته، ولذلك خلقهم علماء بررة أصفياء يعبدون الله بالصلاة والصوم والسجود والتسبيح
والتهليل ويصلون الصلاة ويصومون ويحجون»^(٢).

وتدبّر أيضاً فيما وقع في الزيارة الجامعة الكبيرة من قوله: «وأن أرواحكم ونوركم

(١) م، ن، ج، ١، ص ٤٤٢ رواية ١٠.

(٢) المجلسي: «بحار...» م، س، ج، ١٥، ص ٢٥، رواية ٤٧، باب ١.

(٣) القمي، عباس: «مفاتيح الجنان» دار الصفوة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩، ص ٨٠٧.

(٤) سورة النور: ٤٦.